ألقاب اللهجات:

مرَّ بنا أن العربية الفصحى هي ليست لهجة قريش ولا لهجة قبيلة معينة إنما خليط من اللهجات العربية، وهي اللغة الرسمية للشعر العربي والقرآن الكريم، وقد أدى الاحتكاك الدائم للقبائل العربية في موسم الحج والتجارة إلى تكوين ذلك الكيان المسمى بالفصحى، وقد درج اللغويون العرب على تلقيب كثير من اللهجات العربية بلقب يدور بين مؤلفاتهم، ومنها:

١- **الاستنطاء:** وهو جعل العين الساكنة نوناً إذا جاورت الطاء، ولها مثال واحد هو (أنطى) بدلاً من (أعطى)، ومن شواهده: القراءة القرآنية بقراءة طلحة بن المصرف والحسن البصري: >إنا أنطيناك الكوثر<، والحديث: >اليد المنطية خير من اليد السفلى<

وروي هذا اللقب عن لهجة سعد بن بكر، وهذيل، والأزد، وقيس، والأنصار، كما روي أنه لغة أهل اليمن، وهذا الإبدال موجود في العراق حتى اليوم، وفي لغة الأعراب بصحاري مصر، وتفسير هذه الظاهرة بأن العين قلبت نوناً، وهذا ما لا تؤيده الدراسات الصوتية الحديثة؛ لأن العين تختلف اختلافاً صوتياً كبيراً عن النون، فالعين صوت حلقي احتكاكي مجهور والنون صوت لثوي أنفي مجهور.

ومن المعروف أن الإبدال يحصل عندما يكون هناك تقارب بين الصوتين من ناحية المخرج الصوتي أو الصفة، ويفسر الدكتور إبراهيم السامرائي هذه الظاهرة، فيرى أن (النون) لم تقابل (العين) في (أعطى) إنما جاءت من الفعل (آتي) بمعنى (أعطى) ثم ضُعِّفَ الفعل فصار (أتَّى) بتشديد التاء، ومن المعلوم أن فك الإدغام في العربية وفي غيرها من اللغات الجزرية يقتضي إبدال النون بأحد الحرفين المتجانسين كما نقول في (جَنْدَل) وهي من (جَدَّلَ).

وعلى هذا التفسير يكون التقارب بين النون والتاء من مخرج الأصوات الأسنانية اللثوية، وهنالك رأي لغوي يقوله أبو الطيب اللغوي لا يشترط التقارب في المخرج الصوتي أو في نفس المخرج وعليه ليس لزاماً علينا أن نجد التفسيرات الصوتية المتكلفة.

٢- **الطَّمطَمانية:** ينتسب هذا اللقب إلى طيءوالأزد وقبائل حمير في جنوبي الجزيرة العربية، وهو عبارة عن إبدال لام التعريف ميماً فيقال مثلاً: >طاب امهواء وصفا امجو< في >طاب الهواء وصفا الجو<

وجاء رجل إلى النبي ’ سائلاً: >هل من امبرامصيام في امسفر؟< فأجابه الرسول ’

بلغته ليفهمه الحكم الشرعي قائلاً: <ليس من امبرامصيام في امسفر>، يقصد:<ليس من البر الصيام في السفر>، وبذلك تستوي (أل) الشمسية، و(أل) القمرية في إبدال لامها ميماً.

والتفسير الصوتي لهذه الظاهرة هو أن اللام والميم من فصيلة واحدة، وهي فصيلة الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة أو كما يسميها المحدثون (الأصوات المائعة) وهي (ل م ن ر)، وهذه الأصوات يبدل بعضها من بعض كثيراً في اللغات الجزرية، وهي أكثر الأصوات شيوعاً في هذه اللغات.

ولا تزال هذه الظاهرة شائعة في بعض جهات اليمن، كما أن منها كلمة في اللهجة المصرية وهي كلمة (البارحة) التي ينطقها المصريون:(امبارح).

والطُمطُمانية –بضم الطاءين– هي أن يكون الكلام مشبهاً لكلام العجم، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء قوله: <ما لسان حمير وأقاصي اليمن لساننا، ولا عربيتهم عربيتنا>

٣- **العجعجة**:هي قلب الياء المشددة والخفيفة جيماً في الوقف فقط، وعدا الوقف لا يجوز وإنما يدخل في باب الضرورات، والسبب في ذلك أن النطق بالياء يزداد خفاء بالوقف لسكونها لهذا أبدلوا منها الجيم، والجيم أظهر من الياء، أما في حالة الوصل فلا حاجة إلى الإبدال لأن الياء واضحة وظاهرة، ومثال العجعجة (تميميّ) تصبح (تميمج)، وكقول الشاعر:

يا رب إن كنت قبلت حجتج فلا يزال شاحج يأتيك بج

يريد (حجتي– بي)، وهي أمثلة لياء المتكلم غير المشددة، والبعض من بني تميم قالوا: (شَيَرَة) لـ(شَجَرَة)، وعلى ذلك أنشدت أم الهيثم:

إذا لم يكن فيكن ظل ولا جنًى فأبعدكن الله من شيَرات

تريد (شجَرات).

وتنسب هذه اللهجة إلى قضاعة، وبعض بني حنظلة، وبعض بني سعد، وبعض أهل اليمن، وطيء وغيرهم، وتشيع هذه الظاهرة في عصرنا الحاضر في بعض قرى جنوب العراق وبلدان الخليج فيقولون (مَسْيِد) و(دياي) في (مسجد) و(دجاج) وغير ذلك.

والتعليل الصوتي لهذا الإبدال أن العلاقة بين الجيم والياء واضحة، وكلاهما مجهوران، ومن مخرج واحد، فهما متحدان صفةً ومخرجاً.

٤- **العنعنة:** هي إبدال الهمزة في (أنّ) أو (أنْ) إلى (عين)، واختلف اللغويون في تحديد المراد بهذا اللقب؛ فأما الفراء وثعلب فيجعلانه خاصاً بالحرف (أنَّ) أو (أنْ) وينص الفراء على ذلك صراحة فيقول:>لغة قريش ومن جاورهم تميم وقيس وأسد يجعلون ألف (أنَّ) اذا كانت مفتوحة عيناً يقولون:>أشهد عنَّك رسول الله<، فإذا كسروا رجعوا إلى الألف<، أما ثعلب فلم ينص على ذلك صراحة فيقول:>فأما عنعنة تميم فإنهم يقولون في مواضع (أنَّ) (عنَّ) تقول:ظننت عنَّ عبد الله قائم< ولم يخصصها السيوطي بـ(أن) وحدها وإنما يشترط أن تكون الهمزة مبدوءأبها فحسب فيقولون في(أنكَّ)(عنَّك)، وفي أسلم (عسلم) وفي(أُذن) (عُذُن).

ومن خلال الاستقراء اللغوي نجد أن الإبدال الذي قُيِّدَ بكونه في (أن) المفتوحة لا يثبت، وقد وجدت العنعنة في (أنَّ) وغيرها وفي وسط الكلام وآخره، فمثال ما جاء في بداية الكلمة (أنفوان وعنفوان)، وما جاء في الوسط (السأف والسعف)، وما جاء في الآخر (الخبأوالخبع).

ومثل هذا الاقتراب في الرواية استقراء ناقص من الرواة، فاشتراط البدء بالهمزة أو أن تكون في (أن) المفتوحة ليس له ما يسوغه من الناحية الصوتية، ويمكن أن نعد هذه الظاهرة محاولة للجهر بالصوت؛ لأن الهمزةليست من الأصوات المجهورة أو المهموسة في رأي,والرأي الآخر أنها مهموسة ومخرجها بحسب الرأي الحديث من الحنجرة ولا عمل للوترين الصوتيين معها، ووصفت الهمزة بأنها من الأصوات الشديدة وأن أهل البادية يحققونها في لهجاتهم، فحين يبالغ في التحقيق ويراد أن تكون أوضح في السمع يستبدل بها أحد الأصوات الحلقية القريبة منها مخرجاً وصفة وهو العين,والعين من الأصوات المجهورة، ويذكر صاحب تهذيب اللغة أن العين أقصى مراحل التحقيق للهمز نحو:>يا زيد من أنت<يقول: >يا زيد من عنت<

وقد اشتهر بنو تميم بهذا الإبدال ونسب إليهم بعنعنة تميم، ويمكن أن نعزوها إلى البدو التي كانت تميل إلى الجهر بالأصوات لتجعلها واضحة بالسمع.

وهذه الظاهر موجودة لحد الآن في بعض اللهجات العربية الحديثة ومنها التي تتاخم الصحراء،فتسمع في كل مدن تهامة من يقول:(عالة)في (آلة)، و(العمام)بدلاً من(الإمام)، وبعض أهالي صعيد مصر والعراق يقولون:(لع)في(لا)، والسودان يقولون:>فلان سعل

عليك<يريدون >سأل<.

٥-**الفحفحة**: هي قلب الحاء عيناً، وتنسب إلى هُذيل، وقرأ ابن مسعود:>عتّى حين<في>حتّى حين<، وهناك بعض الملاحظ التي تسجل على الفحفحة:

أ- لم يؤثر عن هذيل أن قلبت الحاء عيناً إلا في قوله تعالى:>ليسجننه حتى حين< و>تربصوا به حتى حين< أما في غير هذين المثالين القرآنيين فلم يبدل.

ب- ورد عن ابن مسعود أنه قرأعدة آيات أبدل فيها العين حاء أي على عكس الظاهرة المعزوة إلى قومه، وهي إبدال الحاء عيناً,فقرأ قوله تعالى:>قالوا نحم< في >قالوا نعم<وقرأ>أفلا يعلم إذا بحثر ما في القبور<في>بعثر<, والتعليل الصوتي لها أن الثاء المهموسة أثرت في العين وجعلتها مهموسة أيضاً وحين تهمس العين تصبح حاء.

ج- قراءة ابن مسعود لا تجزم بأنها عكس لهجة قومه هذيل، وهناك بعض القراء يخالفون لهجاتهم والعلاقة الصوتية بين الاثنين أنهما من الأصوات الحلقية، والحاء المهموس النضير للعين المجهور، وحدَّدَ ابن جني العلاقة بين الصوتين قائلاً:>لولا بحة في الحاء لكانت عيناً<، فالمتكلم يستثقل وجود صوتين في عبارة واحدة وهو الحاء في (حتى حين) فيحاول أن يخالف بينهما طلباً للخفة.

د- كلمة الفحفحة بالموازنة بين ألقاب اللهجات الأخر مثل الاستنطاء والعجعجة والطمطمانية وغيرها أن الصوب المقلوب إليه هو الذي يثبت في الكلمة، وعلى هذا علينا أن نعرف الفحفحة عكس التعريف السابق أي قلب العين حاء، ولو قلب العين إلى الحاء لأمكن القول أن قبيلة هذيل الحضرية قد قلبت العين (المجهور) إلى الحاء (المهموس)، فنحن بين أمرين؛ إما ان نفسر الفحفحة على أنها قلب العين حاء أو نغير نسبتها إلى قبيلة أخرى بدوية مثل (تميم).

هـ- قد يكون أحد الناطقين قد نطق الحاء عيناً لأن الحاء تمثل صعوبة في النطق لوجود علاقة أخرى بين الصوتين هي الصفة الاحتكاكية، ولو أن العين أقل احتكاكاً مع الحاء لذلك قيل: >لولا بحة في الحاء لكانت عيناً< ومصطلح الاحتكاك هو مصطلح حديث ويقابله المصطلح القديم الأصوات الرخوة وهي تجمع بعبارة: >خذ شط هز سعف صح غث<

٦- **الكشكشة**: إبدال الكاف المؤنثة في الوقف شيناً، ويعزى هذا اللقب إلى ربيعة ومضر وبكر بن وائل وبعض أسد وتميم، والقدماء قالوا هو إلحاق الشين بالكاف، وقسم يبدل في الوصل أيضاً، وقرئ النص القرآني: >قد جعل ربكِ تحتكِ سرياً<>قد جعل ربشِ

تحتشِ سرياً< وقرئ: >إن الله اصطفاكِ وطهركِ<>إن الله اصطفاشِ وطهرشِ<

وتفسير هذه الظاهرة أن القبائل الناطقة بالكشكشة حرصت على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان الوقف فيها يظهر اللبس فالوقف على كاف المؤنثة بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب، وللفرق بينهما قلبت التاء المؤنثة شيناً، ثم توسعوا في ذلك فقلبت في حال الوصل شيناً، والعلاقة الصوتية بين الكاف والشين أن كلا الصوتين مهموسات والتقارب في المخرج الصوتي موجود، فالكاف من الأصوات الطبقية والشين من الأصوات الغارية، فأرادوا البيان في الوقف لأن الشين تمثل تفشياً أي انتشاراً في الصوت.

ويمكن تسجيل الملاحظ الآتية عن الكشكشة:

أ- هي مقيدة بكاف مكسورة.

ب- لا بد فيها من إبدال صوت الكاف بالشين وليس إلحاق الكاف بالشين في تعبير القدماء، فتحول الكاف إلى صوت من الأصوات المزدوجة بما يسمى بقانون الأصوات الحنكية، ولاحظوا فيه أن أصوات أقصى الحنك كالكاف والجيم الخالية من التعطيش كالجيم المصرية تميل بمخرجها إلى نظائرها من أصوات أمامية كالكسرة وهو صوت لين أمامي، فالكسرة يجتذب إلى الأمام قليلاً أصوات أقصى الحنك، فتقلب إلى نظائرها من أصوات وسطى الحنك.

وهذا معناه أن الكاف المكسورة تتحول إلى صوت مزدوج هو (تْشْ) وهذه هي الكشكشة، وهذا الصوت موجود في الانجليزية في مثل (children)، وما تزال هذه اللهجة تسمع في جنوبي العراق والكويت والبحرين وبعض قرى محافظة الشرقية في مصر إذ تسمعهم يقولون (تْشَلب) في (كلب) مثلاً.

فالسبب الأساس في ظاهرة الكشكشة هو وجود كسرة وفتحة مطلقة بعد الكاف فلا تسمع هذه اللهجة تنطق مع الضم.

هذه الازدواجية التي حدثت للكاف العربية في هذه اللهجات حدثت للجيم السامية في العربية الفصحى، فصوت الجيم أخذ يتطور من الجيم المصرية إلى الجيم العراقية وهي التي ينطق بها قراء القرآن الكريمثم تطور إلى الجيم الشامية، وله صورة أخرى عند بعض المصريين خاصة في صعيد مصر ينطق دالاً.

نماذج من الاختلاف اللهجي:

١- **كسر أول الفعل المضارع:** المشهور في حرف المضارعة للفعل الثلاثي أن يكون مشكلاً بالفتح في الحالات كلها، وبهذا جاء القرآن الكريم، وهذا هو المألوف في اللغة النموذجية الأدبية غير أن الرواة يؤكدون لنا أن كثيراً من القبائل تنطق بحرف المضارعة حين تكون تاء أو نوناً أو همزة (مكسوراً) وكما قال سيبويه: <و(تِعْلَم) بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأسد السراة وبعض هذيل فيقولون: (تَعْلَم) بفتح التاء والقرآن عليها)، ويبدو من كلام اللغويين أن جميع العرب يلتزمون الفتح حين يكون حرف المضارع ياء فيما عدا قبيلة بهراء التي عرفت لهجتها بكسر هذا الحرف مع الياء، وعرفت هذه الظاهرة بالتلتلة وهذه القبيلة كانت نازلة بالقرب من العراق، وكانت منازلهم متاخمة لحدود الشام، وأغلب الظن أنها تبعت اللغات الجزرية المجاورة لها كالآرامية والعبرية اللتين اطرد فيهما كسر حرف المضارعة.

فالراجح أن الأصل في شكل حروف المضارعة هو ما شاع في لهجات الحجاز من الفتح ثم تطور إلى كسر في معظم اللغات الجزرية غير أن تطوره في لهجات العرب لم يشمل حالة الياء لأن الياء المشكلة بالكسر نادرة الشيوع في النطق العربي؛ ولأن الياء مع الكسر أشق منها مع الفتح لذلك احتفظت معظم القبائل شكل حرف المضارعة بفتحة حين يكون ياء.

والكسرة صائت قصير أثقل من الفتحة وأخف من الضمة إلا أن بعض لهجاتنا العامية تميل إلى كسر حرف المضارع مثل (يِلْعَب، يِنام، يِقوم...)

٢- **تسهيل الهمز:** الهمز في اللغة بمعنى الدفع والغمز، فإذا قلنا همزه بمعنى دفعه، والهمز صوت مَثَّل مشكلة معقدة بين القدماء والمحدثين بسبب مخرجه وصفته وعدم استقراره وعلاقته مع أصوات المد.

فيما يخص المخرج الصوتي فإن الهمز عند القدماء يخرج من أقصى الحلق وعند المحدثين هو صوت حنجري، وهي مرحلة سابقة للحلق، والخلاف في ذلك هو اتساع منطقة الحلق عند القدماء وتضييقها عند المحدثين.

والهمزة صوت غير مستقر يعزى إلى صعوبته في النطق وله أكثر من صورة وهي التحقيق والتخفيف والبدل.

والتخلص من الهمزة نوع من الميل للسهولة لأن نطقها وهي محققة من أشق العمليات الصوتية لذلك مالت اللهجات الجزرية إلى التخلص منها في النطق.

وتحقيق الهمزة أو تسهيل نطقها ظاهرتان موجودتان في المستوى اللغوي، فالأول

يعني إعطاء الصوت حقه بالهمز من جهة المخرج أو الصفة نحو (قرأت) (رأس)، والثاني: التغيير الحاصل على الهمزة بصورته المتعددة هي بين بين كنطق (البئر) (بير)، والبدل مثل (الجؤنة) تنطق (الجونة)، والحذف نحو (العلماء) تنطق (العلما).

وهناك فرق بين التخفيف والتسهيل، فالأول يشمل حذفها كما في (مسألة) تصبح (مسلة)، و(مؤمن) تصبح (مومن).

أما الثاني فيسمى بنطقها (بين بين) وهو تقريب صوت الهمزة من حروف اللين الذي منه حركتها وهمزة (بين بين) لا تتكون في أقصى الحلق حيث تتكون الهمزة الأصلية بل في الموقع الواقع بين الحلق وجوف الفم لذلك يطلق عليها (بين بين) أي بين الحروف الحلقية والحروف الجوفية (أ–و–ي) وصوت الهمزة ضعيف جداً حتى يقال أنه قد اقترب من الحروف الجوفية وهو على نوعين (بين بين) المشهور وهو أن تحذف الهمزة وينطق بحركتها فقط مثل (أإن) تصبح (أ–ِن)، (سأل) تصبح (سال)، (سئم) تصبح (سيم)، (لؤم) تصبح (لوم)، والثاني هو (بين بين) البعيد وهو أن تحذف الهمزة وينطق مكانها بحركة من جنس حركة ما قبلها نحو (سُئِلَ) تصبح (س–ُل).

واشتهر أن ينسب تحقيق الهمزة إلى القبائل البدوية كتميم وغيرهم من قبائل وسط الجزيرة العربية وشرقيها، والتخلص من الهمزة ينسب لمعظم البيئة الحجازية فالهمزة صوت شديد حنجري وصعب في النطق، فهو يناسب البيئة البدوية والتخلص منها جنوح إلى التسهيل وهو ما عرف عن اللهجات الحجازية الحضرية.

ولكن الحكم المار الذكر ليس عاماً ولا يلتزم حالة واحدة في قضية اللهجات فليست القوانين التي تخضع لهذه اللهجات كالقوانين الطبيعية في الكون تلتزم جانباً لا شذوذ فيها واللهجات تخضع للبيئة والمجتمع فهي مرنة متقلبة وقد مثلت القراءات أنموذجاً لعدم التسرع في الحكم على اشتهار بيئة دون أخرى في قضية صوتية ومنها تحقيق الهمزة أو تخفيفها فمن القراء من وافق بيئته ومنهم من خالفها فكتب القراءات تكاد تجمع على أن أبا جعفر ونافعاً من رواية ورش قد تخلصا من تحقيق الهمزة ولا غرابة في ذلك فهما أشهر قراء المدينة ومن البيئة الحجازية التي اشتهر عنها عدم الهمز.

ومن القراء الذين خالفوا بيئتهم ابن كثير الذي استخدم تحقيق الهمزة وهو مكي، ومكة اشتهر عنها التخفيف، وأبو عمرو بن العلاء كان يميل إلى التسهيل أو حذف الهمز في قراءته وهو تميمي، وتميم تهمز فكان يقرأ (يومنون) في (يؤمنون)، و(بيس) في (بئس)، و(بير) في (بئر).

ويمكن أن نعزو عدم وجود الاطراد الكامل في مسألة الهمزة في اللهجات إلى ما يأتي:

١- اللهجات لا تميل إلى المحافظة بل تهدف إلى التطور بعكس اللغة الفصحى فبعض أهل مكة كانوا يهمزون فينقطون (البريئة) في (البريّة)، و(النبيء) في (النبي)، و(الذريئة) في (الذريّة)، ويمثل ذلك شذوذاً في لهجة مكة فهم أهل تسهيل للهمز ويمكن تعليل ذلك إلى عامل المحاكاة أو أنهم شعروا بالنقص لأن الفصحى هي تحقق الهمز في هذه الكلمات السابقة.

٢- خروج أهل الحجاز عن سليقتهم في تسهيل الهمز لشعورهم بأن تحقيقها في الأساليب الأدبية من شعر وخطابة أقرب إلى الفصحى والفصاحة، وجاء نزول القرآن بنبر الهمزة دليلاً على أن اللغة المثالية كانت قبل الإسلام قد استحسنت ذلك.

٣- ما الحجازية والتميمية: ذكر النحاة أن (ما) تدخل على الجملة الاسمية فترفع الاسم وتنصب الخبر في لهجة الحجاز، ولا تعمل شيئاً في لهجة بني تميم فقراءة الجمهور: (ما هذا بشراً)، وتتفق الروايات على أن إعمال (ما) عمل (ليس) لهجة الحجاز وإهمال (ما) لهجة التميميين، فالحجاز يشبهون (ما) بـ (ليس) إذا كان معناها واحداً وبنو تميم يجرونها مجرى (هل) و(أما) وهو القياس لأنه ليس بفعل كـ (ليس)، ولا يكون فيه إضمار، ويعترف ابن جني في الخصائص أن (تميم) أكثر مراعاة للقياس في ذلك من الحجازيين، وإن كانت اللهجة الحجازية أسهل استعمالاً ويبين قوة القياس عند تميم من حيث كانت عندهم كـ(هل) في دخولها مباشرة من دخول كل واحد عند صدري الجملة الاسمية والفعلية إلا أن الحجازية أكثر استعمالاً وجاء بها القرآن.

وينكر الكوفيون أن (ما) عند الحجاز تنصب الخبر فهي لا تعمل وأن المرفوع بعدها باقٍ على ما كان قبل دخولها، والمنصوب فيها على إسقاط الباء لأن العرب لا تكاد تنطق بها إلا بالباء فإذا حذفوها عوضوا منها النصب عند حذف حرف الجر.

٤- خبر ليس: حدث خلاف إعرابي بين تميم والحجاز حول خبر (ليس) إذا اقترن به اللام، فتميم ترفع هذا الخبر حملاً لـ (ليس) على ما النافية على حين تنصبه الحجاز أو قريش إطلاقاً نحو: (ليس الطيبُ إلا المسكُ).

مخارج الأصوات وصفاتها:

١- **الجهر والهمس:** الصوت المجهور عند القدماء يعرف بما يأتي: <هو حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري حتى ينقضي الاعتماد عليه، ويجري الصوت> والأصوات التي تتصف عند القدماء بهذه الصفة هي: (ء-ا-ع-غ-ق-ج-ي-ض-ل-ن-ر-ط-د-ز-ظ-ذ-ب-م-و)، ويزاد عليها الصوائت القصيرة: (الضمة والفتحة والكسرة).

والأصوات التي اختلف فيها هي: (ء-ق-ط)، فعند المحدثين في الهمزة رأيان: الأول: صوت مهموس، والثاني: لا مهموس ولا مجهور، والقاف والطاء بحسب الرأي أنها أصوات مهموسة، ولعلَّ السبب في وصف القدماء لهذه الأصوات هو أنه قصدوا بنطق القاف كأنها جاف أو ما يشبه الكاف الفارسية، ومعنى قول القدماء بإشباع الاعتماد عليه أي أن الصوت المجهور صوت متمكن مشبع فيه، فيه وضوح وقوة، والمجهور أقوى من المهموس، وبعض المجهورات أقوى من بعض على ما فيها من صفات قوية.

والجهر عند المحدثين يعرف بما يأتي: <هو اقتراب الوترين الصوتيين بعضهما من بعض في أثناء مرور الهواء، وفي أثناء النطق، فيضيق الفراغ بينهما بحيث يسمح بمرور الهواء، ولكن مع إحداث اهتزازات وذبذبات منتظمة للوترين>

وقد برهن الاستقراء أن نسبة شيوع الأصوات المجهور أربعة أخماس الكلام في حين أن نسبة شيوع المهموسة خمس الكلام أي ٢٠% .

والهمس عند القدماء يعرب بما يأتي: هو حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه، ويمكن تكرير الحرف مع جري الصوت، والهمس كل شيء له صوت خفي، والأصوات المهموسة تجمع بعبارة (سكت فحثه شخص) إضافة إلى (القاف، والطاء والهمزة) وعدا هذه الأصوات فتعد مجهورة.

وتعريف المحدثين للصوت المهموس بما يأتي: عند النطق به ينفرج الوتران الصوتيان بعضهما عن بعض أثناء مرور الهواء من الرئتين بحيث يسمحان له بالخروج دون أن يعترضه عارض في طريقه ومن ثم لا يتذبذب الوتران الصوتيان، فمعيار الفصل بين الجهر والهمس عند القدماء هو جري النفس أو عدمه، وعند المحدثين تذبذب الوترين الصوتيين أو عدم التذبذب.

٢- **الشدة والرخاوة والتوسط:** الأصوات الشديدة هي امتناع الصوت أن يجري في الحرف، والفرق بينه وبين المجهور أن المجهور يقوى الاعتماد فيه، والشديد يقوي لزومه في موضعه، والأصوات الشديدة تجمع في عبارة (أجدت طبقك) ومثلوا لذلك بكلمة (الحج)

فلا يمكن مد الصوت عند النطق بالجين.

أما عند المحدثين فتسمى الأصوات الشديدة بالانفجارية والتي تتكون بأن يحبس مجرى الهواء الخارج من الرئتين حبساً تاماً في موضع من المواضع ثم يطلق سراح المجرى الهوائي فجأة فيندفع الهواء محدثاً صوتاً انفجارياً، ولا خلاف بين القدماء والمحدثين في الأصوات الشديدة والانفجارية إلا في صوت الجيم، فهو عند المحدثين صوت مركب من انفجاري إضافة إلى احتكاكي، والسبب في حكم القدماء بأنه صوت شديد انفجاري هو اختلاف النطق في هذا الصوت وتطوره، فربما كان ينطق بصوت يشبه الجيم التي تنطق في القاهرة اليوم وهو ما يماثل (Go) في الانجليزية، والجيم الفصحى يختلط صوتها الانفجاري بنوع من الحفيف يقلل من شدتها وهو ما يسميه القدماء بتعطيش الجيم.

والأصوات الرخوة عكس الشديدة، وهي التي يجري فيها الصوت، ومثلوا لها بالمس والرش، فيمد الصوت جارياً مع السين والشين، وهي ثلاثة عشر صوتاً تجمع بعبارة: (خذ شط هز سعف صح غث).

وعند المحدثين تسمى الأصوات الرخوة بالاحتكاكية، فعند النطق بها لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً، وإنما يكتفي أن يكون مجراه عند الخروج ضيقاً جداً ويترتب على ضيق المجرى أن النفس في أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبتها تبعاً لنسبة ضيق المجرى.

وقد حصل اختلاف في الضاد، فعدها القدماء صوتاً رخواً، أما عند المحدثين فهي صوت انفجاري، وسبب الاختلاف أنه ربما حصل تطور في نطق الضاد، فهناك ضاد مولدة وأخرى أصلية قديمة، ويظهر أن الضاد القديمة الأصلية كانت عصية على أهالي الأقطار التي فتحها العرب مما يفسر التسمية القديمة بأن العربية لغة الضاد، ونطق الضاد في العراق وبعض البدو يشبه لحد كبير وصف القدماء للضاد القديمة.

الأصوات المتوسطة: هي الأصوات التي جمعت بين الرخاوة والشدة، وتجمع بعبارة: (لم يروِ عنا) وعند المحدثين تسمى الأصوات المائعة، وحصل خلاف بين المحدثين في صوت العين، فرأي يقول إنه لا تنتمي إلى هذه الأصوات المائعة، ففيها شيء من الغموض، فهي أقل الأصوات احتكاكاً، فالعين فيها بعد عن الأصوات الشديدة، ومن المحدثين من حسم الأمر عن طريق الأشعة واتضح في نطق العين تضييقاً كبيراً للحلق، وبذلك جعلت صوتاً رخواً لا متوسطاً، ومنهم من سار بركب القدماء بجعلها متوسطة لعدم

وضوح الاحتكاك عندها بالصوت.

٣- **الصوامت والحركات:** تنقسم الأصوات الرئيسة بحروف العربية الوسطى على قسمين:

أ- الأصوات الصامتة: وتسمى أيضاً الساكنة.

ب- الحركات أو أصوات العلة.

فالأصوات الصامتة هي ٢٨ صوتاً سنبدأ بها بحسب المخارج الصوتية على الترتيب الحديث:

١- الأصوات الشفوية: وهي الباء، والميم، والواو.

٢- الأصوات الشفوية الأسنانية: الفاء.

٣- الأصوات الأسنانية: الثاء، والذال، والظاء.

٤- الأصوات الأسنانية اللثوية: هي أكبر مجموعة صوتية تخرج من مخرج واحد وعددها سبعة، هي: الدال، التاء، الضاد، الطاء، الزاي، السين، الصاد.

٥- الأصوات اللثوية: اللام، الراء، النون.

٦- الأصوات الغارية: وهي أصوات وسط الحنك، وهي: الشين، والجيم، والياء، وقديماً سموها بالأصوات الشجرية؛ لأنها تخرج من شجر الفهم.

٧- الأصوات الطبقية: الكاف، الغين، الخاء.

٨- الأصوات اللهوية: القاف.

٩- الأصوات الحلقية: العين، الحاء.

١٠- الأصوات الحنجرية: الهمزة، والهاء.

الحركات: تتخذ اللغة العربية الفصحى ثلاث حركات تختلف في الطول والقصر وتسمى: (الفتحة والكسرة والضمة) وكان القدماء يسمون الفتحة بالألف الصغيرة، والكسرة بالياء الصغيرة، والضمة بالواو الصغيرة.

ونبّه ابن جني إلى أنه هناك حركات ثانوية عددها ثلاثة؛ لتصبح إلى جانب الأصلية مجموعها ٦ حركات، وهي إجمالاً كما يأتي:

١- الضمة. ٢- الكسرة. ٣- الفتحة.

٤- ألف التفخيم وهي الفتحة المفخمة القصيرة أو الطويلة وهي التي تأتي بعد أصوات الإطباق (الصاد-الضاد-الطاء-الظاء).

٥- الألف الممالة، وهي الفتحة المشوبة بالكسرة قصيرة أو طويلة كالألف في قراءة

(عالِم).

٦- الكسرة المشمة ضماً، وتكون في النطق بين الكسرة والضمة كحركة القاف في (قيل).

وصف الحركات العربية:

١- الفتحة: صوت أمامي منخفض ومتسع غير مدور يكون اللسان عند نطقها مستوياً في قاع الفم مع انحراف قليل في أقصاه.

٢- الكسرة: صوت أمامي مرتفع ضيق غير مدور ينطق عندما ترتفع مقدمة اللسان نحو وسط الحنك الأعلى.

٣- الضمة: صوت خلفي مرتفع ضيق مدور عند نطقه يرتفع مؤخر اللسان نحو سقف الحنك.

وهذه الأصوات جميعاً عند نطقها تحدث اهتزازاً في الوترين الصوتيين لذلك تكون أصوات مجهورة، فالمحصلة أن أسهل الحركات هي الفتحة ثم الكسرة ثم الضمة.

الفرق بين الأصوات الصامتة والحركات:

للتقسيمات السابقة لأصوات العلة أو الحركات فائدة في معرفة الوضوح السمعي لكل صوت، فليست كل الحركات ذات درجة واضحة في ذلك الوضوح، فأصوات العلة المتسعة أوضح من الضيقة، ومعنى هذا أن الفتحة أوضح من الضمة والكسرة، والكسرة أسهل من الضمة، والضمة أصعب الحركات وأثقلها.

وهذه الحركات (أصوات العلة) أوضح في السمع من الأصوات الصامتة، فالأول اهتزاز الأوتار الصوتية عند نطق الحركات.

الثاني: خروج الهواء من الرئة عند نطق الحركات من دون عائق يعترض سبيله، فالفتحة مثلاً تسمع من مسافة أبعد كثيراً من الفاء والثاء وغيرها كما أن الأصوات الصامتة ليست جميعها ذات درجة واحدة في الوضوح، فالمجهورة أوضح في السمع من المهموسة.

و(اللام، والميم، والنون) هي أكثر الأصوات الصامتة وضوحاً، وأقربها إلى طبيعة أصوات العلة، وذلك أن فيها من صفات أصوات العلة أن مجرى الهواء لا يعترضه حائل أو مانع عند النطق به.

والفرق بين الحركات القصيرة والطويلة فرق في الكمية لا في الكيفية أي أن طريقة النطق في كلتيهما واحدة، ولكن زمن النطق يقصر ويطول في كل صوت، فإذا طال الزمن في الحركة القصيرة أصبحت طويلة.

التطور الدلالي للمفردات:

يعرف التطور الدلالي هو تغيير معاني الكلمات، والتطور هو عكس الجمود والسكون بل هو التحول إلى الأفضل، وجاء في القرآن الكريم: >وقد خلقكم أطواراً< وهو انتقال الكلمة من طور إلى طور، وهذه الظاهرة موجودة في جميع لغات العالم، واللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له هذه الظواهر من عوامل التطور، وعلم الدلالة هو العلم الذي يدرس المعنى.

أسباب التطور الدلالي:

١- أثر القرآن الكريم في معاني المفردات، فكلمة المؤمن معناها الأول المصدق، ومنه قوله تعالى على لسان أبناء يعقوب: >وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين<، ثم استعملت بمعنى ديني خاص وهو الإيمان بالله خاصة وبالنبي ’، ومثلها لفظة الصلاة بمعنى الدعاء والحج بمعنى القصد، وأصبح لها معنى جديد معروف.

٢- العوامل النفسية: من الآداب الاجتماعية والحياء والاشمئزاز والتشاؤم والتفاؤل كلها أسباب نفسية تدعو إلى تجنب كثير من الألفاظ والعدول منها إلى غيرها من الألفاظ التي يكنى بها عن الأشياء التي يستحى من ذكرها، أو يخاف ويتشاءم من أسمائها، فقد استعمل العرب البصير للأعمى، والسليم للملدوغ، والكفيف أي مكفوف البصر، وهذا من قبيل التفاؤل.

٣- تأثير اللغات الأجنبية بإشراب الكلمة العربية الكلمة الأجنبية المقابلة لها أو إعطائها معناها كاستعمال الأطباء اليوم كلمة (تدخل) للعملية الجراحية، واستعمال كلمة (الوسط) للبيئة والمجتمع، و(المدرسة) بمعنى المذهب، و(الدور) بمعنى النوبة، فهي ترجمة حرفية للألفاظ الفرنسية، ومن ذلك الألفاظ التي نقلت عن اليونانية فكلمة (منطق) ترجمة حرفية لليونانية.

٤- سوء الفهم: وهو عامل له صلة بموضوع القياس؛ لأن الإنسان يقيس ما لم يعرف على ما عرف من قبل، ويستنبط على أساس هذا القياس، فيصيب في استنباطه حيناً ويصل إلى الدلالة الصحيحة، ويخطئ حيناً آخر، فيستخرج دلالة جديدة مثال ذلك كلمة (عتيد) تطورت دلالتها إلى معنى (عتيق) أو (عنيد) بسبب القياس الخاطئ على هذين الكلمتين.

٥- تطور أصوات الكلمة فكلمة (كماش) الفارسية تعني نسيج من قطن خشن، وتطورت الكاف إلى قاف، فشابهت الكلمة العربية (قماش) بمعنى ما وقع على الأرض من فتات الأشياء، ومتاع البيت، فأصبحت هذه الكلمة العربية ذات دلالة جديدة على المنسوجات.

٦- اختصار العبارة: تؤدي كلمة واحدة منها ما كانت تؤديه العبارة كاملة قبل اختصارها، وعندئذ تتغير دلالة هذه الكلمة وتصبح بعد أجيال غير واضحة الصلة بينها وبين معناها الجديد، مثال ذلك في اللهجة المصرية (فلان من الذوات) أي من الأغنياء فهي كلمة مختصرة أي: (من ذوات الأملاك).

٧- كثرة دوران الكلمة في الحديث، فمثلاً كلمة (مكتب) تدل في الأصل على نوع من نسج الصوف الغليظ، ثم أطلقت على قطعة الآثاث التي تغطى بهذا النسج، ثم على قطعة الآثاث التي تستعمل للكتابة أياً كانت ثم على الغرفة التي تحوي على القطعة من هذه الآثاث، ثم على الأعمال التي تعمل في هذه الغرفة إلى آخره من المعاني الجديدة.

٨- الابتذال الذي يصيب الألفاظ في كل لغة لظروف سياسية أو اجتماعية أو عاطفية فمثلاً كلمة (الحاجب) كانت تعني في الدولة الأندلسية (رئيس الوزراء) ثم صارت على النحو المألوف الآن، والكلمات (قاطع طريق-إباحي-قاتل-خليع) كانت تطلق في أول أمرها على بعض الكتائب العسكرية تدين بمعناها الحالي إلى غلظة الأخلاق الحربية واستهتارها.

مظاهر التطور الدلالي:

١- تخصيص الدلالة: وهو تضييق معناها، مثال ذلك كلمة (الحريم) خصصت للدلالة على النساء بعد أن كانت تطلق على كل محرم، وإطلاق كلمة (العيش) بمعنى (الخبز)، و(اللحاف) معناها في الأصل كل ما يلتحف به خصصت على ذلك الغطاء المعروف، واستعمال (الصينية) تطلق في الأصل على كل ما يرد من بلاد الصين وقد حدث تطور دلالي فيها على الأواني المعروفة حالياً، والكفر معناه الأصلي الستر والإنكار، ثم خصص بإنكار الدين.

٢- تعميم الدلالة: ويكون بتوسيع معنى اللفظ ومفهومه ونقله من المعنى الخاص الدال عليه إلى معنى أعم وأشمل كلفظة (الوِرد والورود) أصله إتيان الماء ثم استعمل لإتيان كل شيء، وإطلاق كلمة الورد على كل زهر، أو إطلاق كلمة الورد على كل زهر، أو إطلاق كلمة البأس على كل شدة، وهي في الأصل بمعنى الحرب، وإطلاق البحر على

النهر والبحر، وكلمة (الاستحمام) للاغتسال بالماء مطلقاً حاراً كان أو بارداً وهي في الأصل للاغتسال بالماء الحميم أي الحار.

٣- انتقال اللفظ من معنى إلى معنى بسبب المشابهة مثال ذلك كلمة الشجرة بمعنى نخلة، والوغى بمعنى الحرب، وميَّز وتميَّز وامتاز، وأصل معناها الفصل والفرز، والبريد في الأصل المسافة المعروفة، ثم استعمالها للرسول الذي يقطع المسافات لإيصال الكتب.

٤- ويحصل انتقال اللفظ من معنى إلى آخر بطرق من أهمها الاستعارة أي المجاز الذي علاقته التشبيه، والمجاز المرسل وهو الذي تكون علاقته غير التشبيه كالسببية والحالية والمحلية وغيرها، فاستعمال اللفظ بالمعنى الجديد يكون بداية عن طريق المجاز ولكن بعد كثرة استعماله وانتشاره بين الناس تذهب عنه هذه الصفة وتصبح الدلالة الجديدة في اللفظ هي حقيقية، وليست مجازية مثال ذلك كلمة (بحث) تفيد في الأصل تحريك اليد في التراب للتفتيش عن شيء ثم أصبحت بمعنى آخر كما هو معروف الآن، ونحو (اقتبس) تدل على طلب القبس من النار، و(العقل) لفظة تدلى على الربط، و(الروعة، والأروع، والرائع) مأخوذ من الروع وهو الفزع، والباب من الكتاب مأخوذ من الباب الذي ندخل منه، والمعركة مشتقة من عرك الشيء، هذه الألفاظ جميعاً المذكور تدل على معانيها الأخرى المتعارف عليها دلالة مباشرة لا عن طريق المجاز بل إن دلالتها عليها أقرب إلى الذهن من الدلالة الأصلية لشيوع وانتشار المعنى الجديد.

تطور دلالات الألفاظ في التعبير القرآني:

الكلمة في القرآن لها مكانها المناسب وقصدية الاختيار ولها تأثير في سياق الكلام، وقد انفرد النص القرآني عن الأجناس الأدبية الأخرى بأسلوب خاص في اختيار هذه المفردات، فمرة يحدث التطور في معنى اللفظة بمفردها، ومرة عن طريق السياق القرآني، فكلمة المطر مرادفة للغيث في اللغة على حين أن الاستعمال القرآني يفرق بينهما في الدلالة، فكلمة (مطر) وردت في القرآن ١٥ مرة جاءت جميعاً بمعنى العذاب كقوله سبحانه: <وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل> أما كلمة (الغيث) فوردت ٣ مرات بمعنى الرحمة والخير والنماء كقوله تعالى: <وهو الذي ينزل الغيث من بعدما قنطوا وينشر رحمته> ونجد ألفاظاً قد ضيقت في الدلالة واختصت بيوم القيامة وما يحدث فيه كالقارعة والحاقة والقيامة والناقور ويوم التغابن ويوم التلاقي إلى آخره.

ومن الألفاظ التي كان لها دلالة جديدة في الاستعمال القرآني لفظة (الجَنّة) و(الجُنّة) في اللغة تعني الستر، والجَنان: الليل، والجِنّة بمعنى الجن، أما في القرآن فتعني الجَنّة دار

ثواب الآخرة، ومرة يحصل في النص القرآني أن توضع لفظة غريبة إذا كانت بمفردها، ولكنها عندما تدخل عالم السياق القرآني تصبح مناسبة، ونجدها على غرابتها لا يصلح مكانها إلا بوجودها، مثال ذلك كلمة (ضيزى) التي وردت في قوله عز من قال: >ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى<، وهي كلمة غريبة حسنت بحسن موقعها ولا يسد غيرها مسدها، فلم يقل (جائرة) أو (ظالمة) وجاءت هذه الآية إنكاراً لقولهم: >الملائكة بنات الله< وكلمة (ضيزى) في اللغة من (ضاز في الحكم) أي (جارَ)، وجاءت في النص القرآني لتفيد معنى الاستغراب من قسمة الكافرين، وجاءت منسجمة مع الفاصلة القرآنية، وهكذا تنسجم غرابة اللفظة مع غرابة قسمة الكافرين.

ومن ذلك استعمال الصاخة أو الطامة ليوم القيامة كقوله سبحانه: >فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه< أو كقوله تعالى: >فإذا جاءت الطامة الكبرى< والصاخة هي الداهية العظيمة أي شديدة الصوت من صَخَّ يصخُّ فهو صاخٌّ، وهي الصيحة في يوم القيامة التي تتماز بصوت عنيف، والطامة من طَمَّ الماء أي علا، وسميت القيامة طامّة لأنها تكبس كل شيء وتكسره.

المعجم العربي:

لغة: من جذر العين والجيم والميم يدل على السكوت والصمت، فالرجل الذي لا يفصح هو أعجم والمرأة عجماء بينة العجمة، ويقال: صلاة النهار عجماء أي لا يجهر بها في القراءة.

اصطلاحاً: هو كتاب يضم ألفاظ اللغة العربية مرتبة على نمط معين مشروحة شرحاً يزيل إبهامها وتعين الدارس على الوصول إلى مراده.

وهناك عدم اتفاق بين المعنى المعجمي والاصطلاحي في كلمة المعجم، فالمعنى المعجمي اللغوي هو الإبهام والغموض، والمعنى الاصطلاحي يدل على التوضيح والشرح، والإجابة عن ذلك أن زيادة بعض الحروف في الكلمة قد تسبب تغييراً في المعنى وهو موجود في كتب الصرف في ما يسمى معاني الصيغ الزوائد كتضعيف عين الكلمة وزيادة الهمزة في أول الكلمة لتدل على معنى الإزالة، نحو (قذيت عينه وأقذيت عينه) بمعنى أزلت القذى، وكذلك (قسط) بمعنى (جار) و(أقسط) بمعنى (عدل)، ويقال: (أعجمت الكتاب) أي أزلت عجمته بنقطه أو شكله، وقد وضح ذلك الأمر ابن جني في الخصائص

حينما قال: >أعجمت الكتاب إذا بينته أو وضحته< فهو إذن لسلب معنى الاستفهام لا إثباته.

أهمية المعجم:

هناك حاجة إلى المعجم قديماً وحديثاً، فقديماً كان يسأل بعض الصحابة عن مفردات لا يعرفونها كما سأل عمر بن الخطاب في قوله تعالى: >وفاكهة وأباً< فكان يسأل عن >الأب< وهو حشيش الأنعام، وسأل الخليفة كذلك وهو على المنبر عن معنى التخوف في قوله تعالى: >أو يأخذهم على تخوّف< فسكتوا، فقام شيخ من هذيل الحضرية فقال: هذه لغتنا ، التخوف بمعنى التنقص، وعبد الله بن عباس على سعة علمه كان لا يعرف معنى فاطر، والحاجة ازدادت إلى المعجم بعد اختلاط العرب بغيرهم، وانتشار العربية بانتشار الإسلام.

وأول من استعمل كلمة المعجم في التاريخ في القرن الرابع الهجري هو أحمد بن المثنى (٣٠٧هـ) في كتابه (معجم الصحابة) وأردفه (عبد الله البغوي) المحدث المتوفى (٣١٥هـ) في كتابيه المعجم الصغير والمعجم الكبير.

نشأة الفكر المعجمي عند العرب:

العرب لم يكونوا أول من ابتكر تأليف المعجم بل سبقتهم أمم أخرى كالآشوريين والصينيين واليونانيين، والعرب في العصر الجاهلي لم يكونوا بحاجة إلى المعجم لأنهم أمة أمية حتى جاء الإسلام، فدعت الحاجة إلى أن يسألوا عن معاني الكلمات ذات الاصطلاح الجديد.

وبدايات المعجم عند العرب ظهرت في سؤالات نافع بن الأزرق وهو في الكعبة لعبد الله بن عباس (٦٨هـ)، فأخذ يسأله عن مفردات القرآن الكريم، فسأل نافع أخبرني عن قوله تعالى: >عن اليمين وعن الشمال عزين< ما معنى عزين؟ فأجاب ابن عباس: هو تفرق الجماعة حلقاً حلقاً، قال نافع: وهل تعرف العرب ذلك، قال: نعم، أما سمعت عُبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاؤوا يهرعون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا

واستمرت هذه المحاورة بينهما وطالت وعرفت بسؤالات نافع بن الأزرق وكانت تتصف بالنقص مرة والزيادة أخرى بحسب الرواة لكنها تعد المحاولة الأولى لنشأة علم التفسير وكذلك نشأة المعجم العربي بالسؤال عن معاني المفردات، فكانت إجابات عبد الله

بن عباس تؤدي ما تؤديه المعجمات للسائلين، وبعد ذلك ألّف أبان بن تغلب غريب القرآن، وكان قارئاً فقيهاً لغوياً ومحدثاً عن علي بن الحسين وأبي جعفر وأبي عبد الله ^ .

ويعد الخليل بن أحمد الفراهيدي أول من صف معجماً مرتباً ترتيباً علمياً مبيناً معاني المفردات وشارحاً إياها، وبيَّن المستعمل والمهمل على طريقة التقلبات الصوتية فوضع الكلمة وجميع تقلباتها تحت أبعد الحروف مخرجاً ولم يكن الخليل مقلداً لأحد في هذه الفكرة بل كان مبتكراً ومخترعاً لها.

أما المعاجم التي عرفت من قبل عند الآشوريين والصينيين واليونانيين فتعد معاجم خاصة لا عامة، ولم يكن القصد عندهم في تلك المعاجم حصر جميع ألفاظ اللغة كما فعل الخليل باستثناء الصين في هذا المجال.

أسباب تأليف المعاجم:

١- سبب ديني للخوف من وصول اللحن والخطأ إلى النص القرآني، وكان العرب يستعينون في فهم مفردات القرآن بالشعر وبكلام العرب، فيقول ابن عباس: >الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الكريم الذي أنزله الله رجعنا إلى الشعر فالتمسنا معرفة ذلك منه<

٢- سبب اجتماعي: إن حياة البداوة خلال القرن الثاني الهجري قد بدأت تزحف على الحواضر ومعنى ذلك أن المعين الذي كان يستقي منه الرواة قد أوشك على النضوب.

٣- سبب ثقافي: توافر لدى بعض العلماء حشد كبير من الروايات اللغوية، وكانوا يحسون بالحاجة إلى تسجيلها وتدوينها، مثال ذلك: ما روي عن أبي عمرو بن العلاء من أن دفاتره كانت تملأ سقف بيته، وعندما تنسك وتفرغ للعبادة قام بإحراقها، فكان مولعاً بجمع مفردات اللغة وضبطها وحفظ شواهدها وتدوينها في جذاذات ودفاتر إلا أن هذا الإحراق المؤسف كان محفوظاً عند تلاميذه وما أكثرهم وفي مقدمتهم الخليل وغيرهم.

مراحل جمع اللغة:

نشأت الدراسات اللغوية في بدايتها ضعيفة وصغيرة ثم أخذت تنمو شيئاً فشيئاً إلى أن وصلت درجة النضج والاكتمال، ويمكن حصر الدراسات المعجمية واللغوية في مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى: هي جمع الكلمات من غير تبويب، فالعالم كان يرحل إلى البادية ويسمع الكلمات هناك في مختلف المعاني فيدون ما سمع من غير ترتيب.

المرحلة الثانية: جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد، والذي دعا إلى هذا الجمع أنهم رأوا كلمات متقاربة في المعنى فأرادوا تحديد معانيها بموضوع واحد فألف أبو زيد الأنصاري (٢١٥هـ) كتاباً في المطر والآخر في اللبن، وألَّف الأصمعي (٢١٤هـ) كتباً كثيرة منها كتاب النحل والعسل، وألَّف النظر بن شميل كتاباً في خلق الفرس ويدخل ضمن هذه المرحلة مؤلفات العلماء الآتية كفقه اللغة للثعالبي والمخصص لابن سيده، ويطلق على هذا اللون من الجمع المعاجم المبوبة أو معاجم المعاني والموضوعات ومن عيوبها أن كثيراً من الألفاظ تأتي لمعانٍ كثيرة، والباحث لا يعرف في أي الأبواب مطلبه، وكثيراً من الصفات يشترك فيها الإنسان أو الحيوان أو النبات مما يزيد الأمر صعوبة.

المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة وضعت الكلمات في المعاجم على نمط خاص ليرجع إليه من يريد البحث عن معنى كلمة أو حقيقتها أو أصلها، ويمكن القول: إن القرن الأول الهجري هو بداية التأليف اللغوي، والقرن الثاني الهجري بداية التأليف المعجمي، ورائد المعاجم العربية الأول هو الخليل ثم توالت بعده الجهود، فألَّف القالي البارعَ، والأزهري التهذيبَ، وابن دريد الجمهرةَ، والجوهري الصحاحَ، ويسمى هذا اللون من الجمع اسم المعجم المجنس والفرق بينه وبين المبوب أن الأول يلجأ إليه عندما يراد البحث عن المعنى أما الثاني فيلجأ إليه لإيجاد الألفاظ التي تدور في ذهن الباحث من خواطر وأفكار.

المدارس المعجمية:

١- مدرسة التقليبات الصوتية: نمط هذه المدرسة أن توضع جميع التقليبات بالكلمة تحت أبعد الحروف مخرجاً بحسب الترتيب القديم لها فمثلاً كلمة (كبر) تتكون من ٣ أحرف هي (ك، ب، ر) وتقليباتها الممكنة هي (كرب، ركب، ربك، بكر، برك) توضع هذه التقليبات تحت أبعد الحروف مخرجاً وهو حرف الكاف، وهو ينتمي إلى الأصوات الطبقية، هذه المدرسة هي أقدم المدارس المعجمية وترتبط بمخترع نظامها الخليل (١٧٥هـ) ومن أشهر من سار على هذا المنهج أبو علي القالي في البارع في اللغة، والأزهري في تهذيب اللغة،والصاحب بن عبادفي المحيط

٢- مدرسة التقليبات الهجائية: وتنسب لمؤسسها ابن دريد صاحب الجمهرة، وهو سار على نهج الخليل في التقليبات إلا أنه خالفه في النظام الصوتي، فاتبع نظام الهجائية وهو وضع الكلمة وجميع تقليباتها تحت أول الحروف في الترتيب الهجائي، فكلمة (كبر) السابقة وجميع تقليباتها توضع تحت حرف الباء.

٣- مدرسة القافية: سميت بهذا الاسم نظراً للحرف الأخير من الكلمة فتجعله باباً

والحرف الأول فصلاً، فالكلمة السابقة (كبر) توضع في باب (الراء) فصل (الكاف) وتنسب هذه المدرسة إلى الجوهري صاحب الصحاح، وأشهر من سار على نظام هذه المدرسة ابن منظور في لسان العرب، والفيروز آبادي في القاموس المحيط، والزبيدي في تاج العروس وأحمد فارس في الجاسوس على القاموس.

٤- مدرسة الهجائية: تتبع النظام الهجائي أو الألف بائي، وقد سار على هذا النهج بعض المعاجم القديمة أو الحديثة فمن العلماء القدماء أبو عمرو الشيباني في كتابه الجيم، ويعتمد على الحرف الأول للكلمة وفق النظام الهجائي فيضع في باب الهمزة مثلاً كل كلمة مبدوءة بهذا الحرف، وسار على هذا النظام الزمخشري في معجمه (أساس البلاغة) وسار على هذا النظام الفيومي في (المصباح المنير)، والبستاني في (محيط المحيط)، والشرتوني في (أقرب الموارد)، والأب لويس معلوف في (المنجد)، وكذلك المعجم الوسيط للمجمع اللغوي المصري، وهذه المعاجم كلها راعت الترتيب الهجائي على وفق الحرف الأول والثاني والثالث كما فعل من قبل ابن فارس، ونلاحظ أن المعاجم الحديثة قد سارت على هذا النمط لأنه أسهل.

٥- مدرسة المعاني والموضوعات: عرفت اللغة العربية هذا النوع من المعاجم، ولكنه لم ينتشر على الرغم من أن أصحاب هذا النوع قد أدّوا للغة العربية خدمات جليلة وتنسب هذه المدرسة إلى أحد أئمة اللغة والأدب أبي عبيد القاسم بن سلام ومن أشهر معاجم هذه المدرسة أيضاً المخصص لابن سيده والذي توسع فيه كثيراً وهذا النوع يقل الإقبال عليه والاهتمام به لأن كثيراً من الألفاظ تأتي لمعانٍ كثيرة، والباحث لا يعرف في أي الأبواب ذكر مطلبه وكثير من الصفات يشترك فيها الكائن الحي سواء أكان إنساناً أو حيواناً أو نباتاً بل هناك من الصفات ما يشترك فيه الكائن الحي أو الجماد وهذا مما يصعب على الباحث الحصول على مبتغاه.

ظواهر اللغة العربية:

القلب المكاني:

لغة هو تحويل الشيء عن وجهه، واصطلاحاً هو تصيير حرف مكان حرف بالتقديم والتأخير، وليس له صورة محددة بالحروف فقد يكون بين عين الكلمة ولامها أو بين الفاء والعين أو بين الفاء واللام.

والقلب المكاني مسموع عن العرب، ومن العلماء القدماء من أثبته ومنهم من رفضه

كأبي عمر الجرمي وابن درستويه، وقد خصص الثاني مصنفاً في إبطال القلب المكاني، والكلمة التي يحدث فيها قلب تصبح قائمة بذاتها ولا ترد إلى أصلها وأكثر ما يكون في المعتل والمهموز.

أسباب القلب المكاني:

١- يعزى إلى قانون المخالفة نحو (قِسيّ) مقلوب (قووس) فحدث القلب بين صوت الصفير (السين) و(الواو).

٢- أخطاء الأطفال في الكلام.

٣- اختلاف اللهجات العربية والضرورة الشعرية.

٤- التشبيه كقولهم: (عيسى) من (يسوع) حملاً على التشبيه بـ (موسى).

٥- نظرية السهولة الصوتية.

٦- التصريف.

طريقة معرفة الكلمة المقلوبة من الأصلية:

١- الرجوع إلى المصدر مثل (ناء) مقلوب (نأى) والمصدر (نأي) فتكون الثانية هي الأصل والأولى مقلوبة.

٢- ندرة الاستعمال وكثرته فكثير الاستعمال يعد أصلاً أما قليله فمقلوب نحو (لعمري) و(رعملي) فإن الأولى أكثر استعمالاً من الثانية فهي أصل.

٣- كثرة ما يشتق من الأصل أي أن المقلوب إذا وافق المقلوب منه لفظاً ومعنى يجب أن يكون أقل تصرفاً مما قلب منه لأن الأصل أكثر تصرفاً نحو (جاه) مقلوب (وجه) لأنه يقال: <قد وجه الرجل وجاهة وهو وجيه ووجوه وتوجه ووجّه وواجه>

٤- أن تترتب على عدم القلب اجتماع همزتين في نهاية الكلمة، ويدور ذلك الأمر في اسم الفاعل وجمع التكسير في الفعل الأجوف مهموز اللام نحو (جاء) و(شاء) اجتماع همزتين في نهاية الكلمة ثقيل في العربية لذلك قال الصرفيون: إن الكلمة حدث فيها قلب مكاني بانتقال لام الكلمة (الهمزة) مكان عين الكلمة قبل أن تقلب همزة فتكون (جائي) و(شائي) ثم تحذف الياء كما يفعل في كل اسم منقوص لتصير (جاءٍ) و(شاءٍ).

٥- المقلوب يوجد معه حروف الزيادة والمقلوب منه الأصلي ليس فيه حروف الزيادة نحو (اطمأنَّ) مقلوب (طأمَنَ)، والراجح أن ذلك لا يعد قياساً لأن كلمة (اطمأنَّ) هي الأكثر تصرفاً من الثانية والأكثر استعمالاً في اللغة؛ لذلك تكون أصلاً، و(طأمن) تكون مقلوبة، وهذا الرأي لأبي عمر الجرمي، وهناك رأي آخر يذهب إلى أن كلا اللفظين

أصل فلا قلب فيهما على غرار (جذب) و(جبذ) فهما على رأي البصريين أصل فلا قلب فيهما، وهذا ما ذهب إليه ابن جني في خصائصه أما رأي الكوفيين فيعد قلباً في (جذب وجبذ).

٦- اختلاف نظم حروف الجمع الأصلية عن حروف مفرده نحو (أشياء) جمع (شيء) فالهمزة في آخر المفرد وهي في الجمع في أوله، والقول نفسه في جموع التكسير نحو (آراء، وآبار، وآرام) جمع (رأي وبئر ورئم).

الإبدال:

لغة: هو وضع الشيء مكان غيره، واصطلاحاً: هو تقريب صوت من صوت آخر, والغاية منه تحقيق نوع من الاقتصاد في عمليات النطق.

واهتم العلماء العرب بالإبدال بوصفه ظاهرة من الظواهر الشائعة، وهو يمثل حالة من حالات التطور الصوتي وله فائدة في تعرف اللغوي على كم كبير من المفردات واستكشاف أسرار اللغة وتجنب الخطأ في فهم النصوص الأدبية.

واشترط ابن جني في وقوع الإبدال التقارب بين المخارج الصوتية نحو إبدال الهاء من الهمزة الزائدة مثل (أرقت–هرقت) والعين من الحاء كقراءة بعضهم: >عتى حين< في >حتى حين< فالإبدال هنا مقيد بهذا الشرط على حين أن بعض اللغويين توسعوا فيه ولم يشترطوا قرب المخارج في تحقيق الإبدال كأبي الطيب اللغوي صاحب كتاب الإبدال نحو (يجوس، ويحوس) بمعنى (يدوس) فالإبدال وقع بين الجيم الشجري المجهور والحاء الحلقي المهموس.

وتعليل الاختلاف أن ابن جني يريد تقارباً خاصاً للأصوات في انطلاقها وأبو الطيب يريد انطلاقاً عاماً للأصوات في أن الصوامت كلها تشترك في صفة عامة وهو وجود الاعتراض في نطقها عكس الأصوات الانطلاقية (العلة)؛ ولهذا ينظر أبو الطيب إلى الأصوات كلها نظرة شمولية.

والإبدال على ضربين:

أولاً: بدل حرف من حرف لأجل الإدغام كقراءة بعضهم (يصّالحا) وأصل الفعل (يتصالحا) فأبدلت التاء إلى صاد ثم حصل الإدغام وهو بذلك يكون بفتح الياء واللام وتشديد الصاد.

في قوله تعالى: >أن يُصْلحا< بضم الياء وسكون الصاد وهو من الفعل (أصلح).

ثانياً: بدل حرف من حرف في غير الإدغام وهو على ثلاثة أنواع:

١- الإبدال النادر الواقع في سبعة أحرف (ق، خ، ذ، ظ، ض، ح، غ) نحو (أخن، أغن).

٢- الإبدال القياسي الشائع ويقع في ٨ أحرف تجمع في عبارة (طويت دائماً) نحو (غمد سيفه) و(غمت سيفه) بين الدال والتاء.

٣- الإبدال الشائع ويكون مقصوراً على السماع بأن تختص به قبيلة دون أخرى كالعنعنة والعجعجة وغيرها.

وهناك فرق بين الإبدال اللغوي والإبدال الصرفي، فالأول أعم وأشمل من الثاني؛ لأن اللغة حينما استقرت وجمعت نصوصها لم يقتصر الإبدال على ما سنَّه الصرفيون، ففي الصرف هناك حروف معينة يقع فيها الإبدال فالإبدال اللغوي شمل ظواهر حدث فيها إبدال حرف من حرف من غير أن يتماثلا في الصفة أو المخرج.

أما عن النحويين فالإبدال يقع في حروف الزيادة التي تجمع عبارة (اليوم تنساه) زائداً (د، ج، ط) ومن ثم تصبح هذه الحروف مجموعة في عبارة: >طال يوم أنجدته<

أمثلة على الإبدال: (ر جل مسهب العقل ومسهم)، (ثوب مهرود ومهروت)، (قُتِّر على الرجل رزقه وقدّر)، (رجل قتّات وقسّاس إذا كان نماماً وفي الحديث لا يدخل الجنة قتّات)

هناك علاقات عدة بين الحروف دعت إلى ظاهرة الإبدال:

١- التشابه في حالة اجتماع صوتين أحدهما مهموس والآخر مجهور، فيؤثر أحدهما في الآخر بحيث يصبحان مجهورين أو مهموسين ويكون في فاء الافتعال إذا كان (د،ذ،ز) فتبدل (د) إلى (ت) نحو (ادتعى، اذتكر، ازتاد) تصبح (ادّعى، اذدكر، ازداد)، فاجتمع صوتان متجاوران، الأول مجهور، والثاني مهموس، فأثر المجهور في المهموس، وانقلب المهموس إلى صوت مجهور ليجتمع صوتان مجهوران.

٢- التماثل، وهو أن يتحد الحرفان مخرجاً وصفة كالباءين أو التاءين أو غيرهما.

٣- التجانس أن يتفق الحرفان مخرجاً ويختلفا صفةً كالدال والطاء.

٤- التقارب يحدث فيما يأتي:

أ- أن يتقارب الحرفان مخرجاً ويتحدا صفة كالحاء والهاء، فالأول حلقي، والثاني حنجري، وهما مهموسان.

ب- أن يتقارب الحرفان مخرجاً وصفة كاللام والراء فهما من الأصوات اللثوية وهما مجهوران.

ج- أن يتقارب الحرفان مخرجاً ويتباعدا صفة كالدال والسين وهما من الأصوات الأسنانية اللثوية، والأول مجهور، والثاني مهموس.

د- أن يتقارب الحرفان صفة ويتباعدا مخرجاً كالشين والسين فهما مهموسان، والأول غاري، والثاني أسناني لثوي.

٥- التباعد ويحصل في ما يأتي:

أ- أن يتباعد الحرفان مخرجاً ويتحدا صفة كالنون والميم، فالأول لثوي، والثاني شفوي، والفرق بينهما ثلاثة مخارج وهما مجهوران ومن أصوات الغُنَّة.

ب- أن يتباعد الحرفان مخرجاً وصفةً كالميم والضاد فالأول شفوي، والثاني أسناني لثوي، فالميم صوت انفتاح متوسط، والضاد صوت إطباق قوي انفجاري.

وخلاصة القول في موضوع الإبدال لو تتبعنا مسوغات الإبدال في حروف المعجم العربي لوجدنا علاقة التقارب أكثر بين تلك المسوغات، أما التجانس والتباعد فقليلان نادران، فمثال التقارب بين الحاء والخاء بمعنى السحابة (الطحروروالطخرور) ومثال التجانس بين الدال والتاء (قرد وقرت) للدم إذا جمد، والمباعدة بين الدال واللام نحو (معدة ومعلة) إذا اختلسه.

الاشتقاق:

هو توليد بعض الألفاظ من بعض والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد مادتها ويوحي بمعناها المشترك الأصيل.

وهو إحدى الوسائل الرائعة التي تنمو عن طريقها اللغات وتتسع ويزداد ثراؤها في المفردات، والاشتقاق له أنواع ثلاثة: (الأصغر، الكبير، الأكبر) وفي النوع الرابع الملحق بها هو (النحت) الذي يسمى عند البعض بـ (الكُبّار).

١- الاشتقاق الأصغر: هو أكثر الأنواع وروداً في العربية، وطريق معرفته تقليب تصاريف الكلمة حتى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ جميعاً كـ(ضَرْب) فإنه دال على مطلق الضرب أما (ضارب ومضروب ويضرب واضرب) فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً فكلها مشتركة في (ض، ر، ب) وفي هيئة تركيبها.

وتأسيساً على ذلك فإن كل كلمة بها حروف المادة الأصلية على ترتيبها يمكن أن تفيد المعنى العام الذي وضعت له تلك الصيغة، فالرابطة المعنوية لمادة (ع، ر، ف) تفيد انكشاف الشيء وظهوره تتحقق في جميع الكلمات الآتية: (عَرَفَ، عَرَّفَ، تعرّف، تعارف، عُرِفَ، عُرْفٌ، أعراف، عرّاف، تعريف، عرفان، معرفة) وهكذا.

ويمسى هذا النوع من الاشتقاق بالصغير أو العام أو الصرفي؛ لأنه تتصرف الألفاظ عن طريقه ويشتق بعضها من بعض، فمعنى هذا افتراض الأصالة في بعض الألفاظ، والفرعية في بعضها الآخر، ومن هنا يختلف النحاة في أصل المشتقات، فيرى البصريون أن المصدر هو أصل المشتقات لكونه بسيطاً أي يدل على الحدث فقط، بخلاف الفعل فإنه يدل على الحدث والزمن الذي قال به الكوفيون بأنه أصل في المشتقات بأن المصدر يجيء بعده في التصريف، فيقال مثلاً: كتب يكتب كتابة.

٢- الاشتقاق الكبير: سماه ابن جني بالاشتقاق الأكبر وقد أولع به لأنه يميل إلى القناعة بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله في حالتي البساطة والتركيب، وهذا النوع من الاشتقاق هو ارتباط مطلق غير مقيد بترتيب بين مجموعات ثلاثية صوتية ترجع تقاليبها الستة وما يتصرف كل منها إلى مدلول ثالث مهما يتغاير تركيبها الصوتي.

وقد فطن الفراهيدي إلى هذه الروابط المعنوية في الاشتقاق الكبير كما فطن إليها قبل ابن جني شيخه أبو علي الفارسي إلا أن ابن جني توسع فيها، وإن كان لم يزعم اطراده في جميع مواد اللغة وضرب الأخير أمثلة كثيرة منها (ج، ب، ر) أينما وقعت فمعناها الشدة والقوة، ومن ذلك جبرت العظم إذا قويته، والجبر الملك لقوته وتقويته إلى غيره، ومنها رجلٌ مجرَّب إذا جرَّسته الأمور فقويت منّتُهُ، ومنه الجراب لأنه يحفظ ما فيه، ومنه الأبجر، والبجرة، وهو القويم، ومنه البرج لقوته في نفسه، ومنه رجّبته الرجل إذا عظمته ومنه رجب لتعظيمهم إياه عن القتال فيه.

وأكثر الأمثلة التي حدث فيها هذا القلب اللغوي هي ثلاثية الأحرف والقائلون بثنائية اللفظ العربي يقولون إن شواهد هذا القلب اللغوي هو من الثلاثي المضعف قبل سواه لأن صورته أقرب إلى صورته الثنائية ولأن القلب فيه أيسر من غيره، ولاحظوا صوراً في ذلك مما هو غير الثلاثي نحو أذهب في مشيئهوأهبذ، وكلَّب الأسير، وكبَّله، وأشفى على الأمر وأشاف عليه.

٣- الاشتقاق الأكبر: وهو الإبدال اللغوي ومعناه ارتباط بعض المجموعات الثلاثية الصوتية ببعض المعاني ارتباطاً عاماً لا يتغير بالأصوات نفسها بل بترتيبها الأصلي

والنوع الذي تندرج تحته، وحينئذ متى وردت إحدى تلك المجموعات الصوتية على ترتيبها الأصلي فلابد أن تفيد الرابطة المعنوية المشتركة سواء احتفظت بأصواتها نفسها أم استعاضت عن هذه الأصوات أو بعضها بحروف أخرى تقارب مخرجها الصوتي أو تتحد معها في جميع الصفات من ذلك تناوب اللام والراء في جميع الصفات من ذلك تناوب اللام والراء في هديل الحمام وهديره، والقاف والكاف في كشط الجلد وقشطه، وهو تقارب في المخرج الصوتي، وتناوب الصاد والسين في سقر وصقر، وكذلك في السراط والصراط، وهو اتفاق في الصفة الصوتية وهكذا.

وقد أورد ابن جني كثيراً من الأمثلة المتعلقة بهذا الضرب من الاشتقاق في باب (تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني) ولم يضع له اسماً وقد عزا بعض المحدثين إلى هذا النوع من التطور الصوتي الذي يدخل أحياناً في اختلاف اللهجات في أن المعاجم تروي لنا صورتين أو نطقين بوجود علاقة صوتية بين الحرفين المبدَل والمبدَل منه .